كتاب المليونير

المعتصم بالله المؤمن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْم

وَبِهِ نَسْتَعِيْن

كِتَابُ المِلْيُونيْر

تأليف:

المعتصم بالله المؤمن

كانت الدّقائق تمرّ بعنفٍ على جميع الواقفين في ردهة الانتظار في ذاك المشفى الفاخر في كوالالامبور في ماليزيا.. كانت دقّات جهاز القلب تثير التّساؤل والفضول في أنفس أولئك الذين كانوا أمام غرفة العناية المشدّدة.. واحد اثنان.. واحد اثنان..
- لا .. إنّه لا ينبض بانتظام..

بذا همس الشّاب "مالتن" وهو يخبّأ رأسه بين كتفيه.. إنّه يشهد لحظةً مصيريّةً في حياته.. بينما كان الموظّفون المهمّون والخدم المقرّبون الحاضرون يعيدون حساباتهم ويضربون أخماساً في أسداس.. ماذا سيحدث؟.. وهل سيكون هناك أثرٌ لما سيحدث؟.. هيّا أجبنا أيّها القدر!!

وفاجأهم صوت جهاز النّبض بانخفاضٍ سريعٍ انخفضت معه معنويّات الكثيرين وتسارعت قلوبهم وتوسّعت عيونهم بينما عدّ القدر للعشرة و.. توووووووت...

وأعقب هذا صمتٌ رهيبٌ فتبادل الواقفون النّظرات ذات المعاني المؤثّرات في الضّوء الأخير قبل أن تطفأ أضواء غرفة العناية ويخرج الأطبّاء وهم يعلنون العزاء بموت الفقيد وفقد العزيز وعلى الفور انهارت خطيبته منفجرةً بالنّحيب والبكاء وعلى مرآها أخذ كبير الخدم والآخرون يبكون ويواسون

بعضهم ويعتنقون وتحوّلت غرفة الانتظار إلى مأتمٍ وعويل..

وبعد دقائق ذهبت السّكرة وجاءت الفكرة فطالب الحشد أجمعون برؤية المرحوم ودخلوا مستعجلين يطلّون على الميّت الكميد وعادت حفلة البكاء من جديد بحيث لم يسمعوا الهمسة التي همس بها أحدهم :
- وأخيراً!

كان هذا هو الشّاب مالتن ذو المعطف البنّي القديم الذي كان يخفي بسمته بين ياقته الطّويلة.. وما إن تأكّد بعينيه من موت عمّه حتّى أدار ظهره للوقوف وترك الأسى لأهله واستقبل الحياة بصدره وخرج من الغرفة وعقله يكاد يقفز من الفرح وهو يخفي بسمته بشقّ الأنفس..

وما إن درج على درج المشفى حتّى صارت الحياة في عينيه جدّ حلوة فهمس باسماً:
- والآن من فوري إلى المحامي!

وهرول الرّجل باتجاه قلب المدينة إلى ذاك المكتب الفاخر الذي يخصّ محامي عمّه الخاص..

ووقف أمام الباب ذي الخشب الموشّى وحاول أن يحسن مظهر شعره وثيابه قبل أن يطرقه ولكنّه همس ضاحكاً:
- ولم؟!.. صرت أثرى من صاحب هذا المكتب!.. صار هو من

سيطلب رضاي!

فطرق الباب بثقةٍ وقد رفع أنفه عالياً ففتح الحاجب العجوز ذو الهندام الأنيق الباب.. ولكن ما إن رأى مالتن بثيابه القديمة حتّى اكفهرّ وجهه واستعدّ ليطرد هذا الطفيليّ الفقير من أمامه بينما وجّه إليه الشّاب نظراتٍ آمرةٍ وقال:
- ابتعد من وجهي أيّها العجوز ونادِ سيّدك على الفور!

فقطّب الحاجب جبينه وهمّ بصفق الباب عندما أردف مالتن:
- يبدو أنّك لا تعلم أنّك بحضرة من!.. أنا المليونير الجديد مالتن!.. وقد جئت لأستلم مقاليد أمور أملاكي بعد وفاة ذلك العجوز عمّي!

وانفجر مالتن ضاحكاً بينما ساورت الحاجب الرّيبة ولكنّه أدرك أنّها الضّحكة المتعجرفة نفسها لعائلة مالتن فاضطرّ أخيراً إلى إدخال مالتن إلى بهو المكتب الفاخر الكبير الذي لو رآه صاحبنا البارحة لانشده وانبهر ولكنّه الآن كان ينظر من أعلى ويرمق ما حوله بطرف عينيه وكلّ ما في داخله يصيح:
- هذا مكتب واحدٍ من الأتباع فكيف إذاً بيت السّيّد؟!

ومرّت لحظاتٌ قبل أن يظهر المحامي ذو العقد الخامس من عمره بهيئته الرّزينة وبذلته الرّسميّة ويجلس يتفحّص زائره ذا النّظرات المتكبّرة البغيضة ويستعدّ ليتحمّل ثقله وجنون عظمته!

وما إن فاتحه بالموضوع وتأكّد المحامي من صدق مدّعاه وحقيقة خبره حتّى قال بصوتٍ خفيضٍ:
- ربّما كان بإمكانك يا سيّدي أن تنتظر بضع ساعات.. بعد أن يتمّ دفن عمّك على الأقل!

فانفجر مالتن غاضباً:
- وما علاقتي أنا بهذا الموضوع؟!.. إنّ الوراثة والوصيّة تعمل بمجرد موت الموروث لا بدفنه!.. والآن قم بعملك وسلّمني المفاتيح ومقاليد الأمور.. هيّا تحرّك!

وبلع المحامي امتعاضه ثمّ نهض إلى الغرفة المجاورة وسمع مالتن صوت فتح مفاتيح وصرير الحديد فسال لعابه وأزهرت أحلامه وسرعان ما عاد المحامي وفي عينيه نظرةٌ كأنّها نظرة شماتةٍ وهو يقدّم له نسخة وثيقةٍ رسميّةٍ مختومةٍ ومبصومةٍ ومصحوبةً بكتابٍ ذو غلافٍ ثمينٍ فبدأ مالتن يقرؤها عندما تذكّر رغماً عنه أنّه لا يحسن القراءة فصدم ثمّ تدارك الموقف قائلاً:
- اقرأها لي أنت.. أليس هذا عملك؟!
- بلى ولكنّني أردتّك أن تتأكّد من هذا بنفسك..

وشحذ المحامي صوته ووضع نظّارته وأخذ يقرأ والشّاب مالتن بالكاد يسمعه من بين أحلامه وما أن أنهى حتّى قال له مالتن:
- فهمت.. كما هو متوقّع.. الآن أين المفاتيح؟

فبهت المحامي ولم يدرِ ما يقول ثمّ أجاب بصوتٍ مرتبكٍ:
- كأنّك لم تسمع ما قلت يا سيّدي!
- وماذا قلت؟.. أعني هذه الرّسميّات من اختصاصك.. أمّا أنا فلا تعنيني.. إنّ ما يعنيني فقط هو المفاتيح والأوراق الخاصّة بالبنوك والنّقود... وهذه الأمور!

فتنهّد المحامي إذ اضطرّ ليتعامل مع هذا النّوع الشّعبيّ البسيط من النّاس وأعاد قراءة جزءٍ من الوثيقة بصوتٍ موضّح:

"وعلى وريثي أن يؤدي الامتحان الذي أودعته لدى محاميّ "بتلر" والذي هو عبارةٌ عن امتحانٍ في كتاب "تخيّل نفسك ثريّاً" الذي ألّفته وأرفقته بوصيّتي.. فإن نجح كان بها وكان وريثي وإن فشل آلت أملاكي إلى الجمعيّات الخيريّة و..."

فهتف مالتن بغضبٍ:
- مستحيل!.. أنت محتال.. تطمع بثروتي!
- ليس مستحيلاً.. كما أنّ هذا ليس احتيالاً.. فهذه هي الوثيقة بخطّ عمّك وتوقيعه وبصمته حقيقةً.. انظر.. لهذا كنت أريدك أن تقرأها بنفسك..

وأدار المحامي الوثيقة ليريها لمالتن الذي انتزعها من يده بعنفٍ ومزّقها بوحشيّةٍ وقال:
- والآن لم يعد هناك حقيقة!
فكبت المحامي ضحكته وقال:

- يا سيّدي.. هذه مجرد نسخةٍ من عشرين نسخةٍ غير الوثيقة الأصليّة.. هكذا وصّى عمّك بأمواله وهكذا يجب أن يكون!
- لا .. لا!

ونهض مالتن ليهاجم المحامي بعنفٍ بينما حاول الأخير أن يدافع عن نفسه فسقط الكتاب من حضنه وفتح..
وما إن رآه مالتن مفتوحاً حتّى أخذ يكيل له الرّكلات بغضبٍ وتشفّي ويمزّقه بين نظرات المحامي الحيرانة ثمّ أدار نظره وكأنّ الدّنيا قد ضاقت به في اللّحظة الأخيرة وأخذ يصرخ كالمجنون وهو يخرج من المكتب مكتئباً حزيناً وما إن غاب صوته حتّى تبادل المحامي مع حاجبه النّظرات بينما قال المحامي واضعاً يده على رأسه بألمٍ:
- أعتقد أنّ هذا الرّجل هو أكبر مصيبةٍ في تاريخي المهنيّ على الإطلاق!
- أنا معك في هذا يا سيّدي!

أمّا مالتن فقد خرج يحطّم الأرض بقدميه ويثور كالبركان ويضرب الجدران حتّى أدركه اللّيل وكلّت قدماه فقصد إحدى الحدائق واستلقى على أحد كراسيها كعادته.. وزفر بألم..

- مليونير وأنام على كرسيٍّ في الحديقة؟!.. آه!.. إنّ عمّي متوحّش.. ما وصلني منه خيرٌ لا وهو حيٌّ ولا وهو ميت.. آه!.. "تخيّل نفسك ثريّاً"؟؟!.. ومن يحتاج إلى التخيّل وهو ثريٌّ حقيقةً؟!

وتقلّب على الخشب متحسّراً وقال:
- يبدو أنّه لا بدّ من هذا.. فمن غير المعقول أن أضيّع كلّ تلك الثروة لمجرّد ورقة امتحانٍ تافهة..ولكن كيف؟!.. كيف وأنا لم أقرأ حرفاً في حياتي علاوةً على حفظ كتابٍ أو الخضوع لامتحان؟!.. لطالما كانت هذه الكلمات مجرّد ألفاظٍ أسمع بها عند أولاد المدارس أو الكسالى التّعيسين من رفاقي في الحي..

وضرب وجهه بغضبٍ وصرخ:
- لم أتخيّل أن اضطرّ إلى استعمالها يوماً بعد كلّ هذا العمر..
ولكن ما العمل؟.. لا بدّ من هذا.. لا بدّ!

وما مضت دقائق قبل أن ينهض عن الكرسيّ منفجراً.. لن يعرف للنّوم مذاقاً وتلك الهواجس تضربه وتعذّبه.. فأخذ يذرع الحديقة والشّوارع بخطواته الغاضبة حتّى تبدّت أنوار الفجر فاتّجه من فوره إلى مكتب المحامي يحوم حوله ساعاتٍ وما إن رأى المحامي متّجهاً إليه حتّى هجم عليه يسأله بانفعال:
- أين هو؟.. أين هو؟.. هاته حالاً!

وحاول المحامي المسكين أن يخلّص ياقته من يدي مالتن ويلتقط أنفاسه وهو يقول:
- عمّ تتكلّم؟.. ماذا تريد؟.. ستقتلني!

فأفلته مالتن قائلاً:

- الكتاب؛ جواز سفري إلى عالم الثّراء!.. أين هو؟
فأجاب المحامي مغضباً وهو يلتقط أنفاسه بغضبٍ ويفتح باب المكتب:
- لن أحمله معي بالطّبع.. إنّه هنا في المكتب!

ودخل المحامي وأعطاه إيّاه فتناوله مالتن وقلّب صفحاته الممزّقة المتّسخة وقد انتابته نوبة ندمٍ مريرةٍ وقال بصوتٍ خفيضٍ:
- أما من نسخةٍ أخرى غير هذه؟
- لا!.. هذا كلّ شيء.. وهي بخطّ يد عمّك كما ترى..

وحاول المحامي أن يخفي بسمة الشّماتة بينما حاول مالتن أن يخفي وجهه وانطلق مبتعداً وهو يحاول أن يصحّح وضعيّات الأوراق بكلّيته، وبذا مشى كثيراً تحت وطأة شروده قبل أن...

قبل أن يشعر بشبحٍ سريعٍ يخطف ما بين يديه مطلقاً صوت تمزّقٍ رهيبٍ للصّفحات التي بين يديه وقد انفصلت عن جذورها وصدم للحظاتٍ قبل أن يدرك الواقع وينطلق خلف ذلك اللّص..

- توقف أيها المجنون.. توقّف.. إنّك لا تدري ماذا تفعل!
وبحّ صوته اليائس وهو يفقد أثر الكتاب والثّراء ضربةً واحدةً فصرخ منتحباً كطفلٍ صغيرٍ بينما تعالت ضحكات العصابة التي حوله..
- مجنون!

- عرضٌ مدهشٌ يا جيم!
- يا لهذا الشّاب مخبول!
- لا بدّ أن أباه سيحرمه من مصروفه شهراً لأنّه ضيّع كتابه!
وأخذوا يتضاحكون بهرجٍ وهم يغادرون بينما انهار مالتن على ركبتيه وهو لا يسمع إلّا عويل نفسه وصراخ روحه وقد اسودّت الدّنيا حوله..

ومرّ زمانٌ قبل أن يحسّ بنغزاتٍ على ظهره فعاد إليه وعيه وهو يسمع:
- أأنت حيٌّ يا رجل؟!

فرفع مالتن عيناه ليلتقيا بعينيّ شرطيّ مرورٍ غاضبٍ وهو يصرخ:
- ماذا تفعل هنا في وسط الشّارع؟!.. لقد عطّلت السّير!

وأحسّ مالتن فجأةً بصوت زمامير السّيّارات الغاضبة التي كانت تصدح في المكان فنهض متثاقلاً وابتعد وسط الشتائم التي كانت تنهال عليه من كلّ جانب ومشى.. ومشى..

وهبط اللّيل عليه وهو هائمٌ على وجهه لا يحسّ بجوعه ولا بتعبه.. لم يدرِ عدد الأيّام التي قضاها بلا طعامٍ عندما فتح عينيه فجأةً في مكانٍ أبيض!

ولكنّه لم يكن جائعاً بالقدر الذي اعتاده.. ومع ذلك كانت معدته

تنغزه فحاول أن ينهض عندما انتابته نوبةٍ تشنّجٍ على طول جسده فسقط مصعوقاً وحاول أن يلتقط أنفاسه عندما أحسّ أن يداه مقيّدتان..
- ما هذا الأنبوب الذي على يديّ؟.. أو بالأحرى الذي في يدي؟.. هذا فيه سائلٌ شفاف ولكن.. ما هذا؟؛ في الآخر دم!

وسرت القشعريرة في جسده وهو يتفكّر في هذه الحال الغريبة التي هو عليها.. وحاول أن يدير رأسه ولكنّه أيضاً لم يستطع وصار شعوره مأساويّاً قبل أن يسمع خطواتٍ ويطلّ عليه وجهٌ يائسٌ ذو هيبةٍ واضحةٍ سرعان ما انتفض متفاجئً عندما رأى عيني مالتن مفتوحتين وانتابته بسمةٌ مباغتةٌ فأسرع فوراً ينادي فرحاً:
- دكتور.. دكتور.. لقد أفاق.. أفاق!

وسرعان ما جاء الطّبيب واطّلع متفاءلاً وسأل مالتن:
- ما اسمك يا سيّدي؟
- مالتن..
ووّجه الطبيب بضعة أسئلةٍ ليطمئنّ عن عقله ووعيه ثمّ التفت إلى الرّجل الآخر قائلاً:
- أهنّئك!.. لقد تجاوز مرحلة الخطر..
- يعني أنّه سيعيش يا صديقي؟
- هذا المتوقّع إن حصل على عنايةٍ طبيّةٍ كافية..
- لا تقلق من هذه النّاحية؛ فضميري كفيلٌ بهذا!
وضحك الطّبيب وقال مازحاً:

- المهم ألّا تصدمه بسيّارتك ثانيةً!

وتبادل الاثنان بسمةً بينما كان مالتن مصدوماً ليس فقط بالسّيّارة بل بالخبر أيضاً!.. واقترب الرّجل من مالتن وقال:
- لا أدرِ إن كنت تذكر ما حدث.. ولكنّك كنت كما يبدو شارداً.. وبما أنّني معتادٌ على أنّ طريق فيلّتي مقفرٌ بالعادة فقد كنت مسرعاً ولم أدرك ما حدث إلّا بعد فوات الأوان.. و..

وتضاربت الكلمات في فم الرّجل المرتبك قبل أن يقول أخيراً:
- على أيّة حالٍ أرجو أن تسامحني.. وسأفعل ما بوسعي لأعوّضك عن ضررك إن شاء الله وخاصّةً إن لم تخبر الشّرطة..

وسكت الرّجل خجلاً بينما أجاب مالتن:
- الكتاب.. أعد إليّ الكتاب!
- عن أيّة كتابٍ تتحدث يا سيّد مالتن؟.. لم يكن معك أثرٌ لأيّ كتاب!
- نعم.. لأنّهم سرقوه منّي.. الأوغاد!
- يبدو أنّ ذلك الكتاب يعني لك الكثير.. إن كنت تذكر أوصاف اللّصوص جيّداً فقد نستطيع الإمساك بهم إن وفّقنا الله..
- عصابةٌ من أهل الشّوارع.. لا.. لا بدّ أنّهم مزّقوه و أشعلوا به تبغهم.. آه!

وحاول الرّجل أن يقول شيئاً قبل أن يقاطعه مالتن قائلاً بحسرةٍ:
- لا أحد منكم يدرك قيمة ذلك الشّيء.. لا أحد!

- على الأقل أخبرني في أيّ شارعٍ كنت.. كي أرسل رجالي للبحث عنهم.. وإذا ثبتت التّهمة عليهم أمكن معاقبتهم!
فتوقّف مالتن عن النّحيب مدهوشاً ونظر إلى الرّجل مستفهماً:
- رجالك؟؟
- نعم رجالي.. آآ.. فهمت!

وضرب الرّجل يديه ضاحكاً وأردف:
- من فرط اهتمامي بك نسيت أن أعرّفك عن نفسي!.. أنا القاضي "محمّد لولام"..

وسكت لحظةً ثمّ استطرد جادّاً وقد كست وجهه الهيبة:
- لا!.. كلمة قاضي لا تعني في قاموسي إلّا العدل والنّزاهة.. ومن ذلك حكمت على نفسي بإسعافك وتعويضك رغم أنّه كان الممكن أن أتجاهل ما حدث وأتركك تموت في ذلك الريف النّائي واللّيل الدّهيم!

فأجاب مالتن وقد تغيّرت لهجة حديثه:
- حسناً.. أنا لست أكذب على أيّة حالٍ يا سيّدي؛ لقد سرقوه منّي حقيقةً.. بجوار دار المسارح العامّة..
- هذه بعيدة.. أعني أعرف تلك العصابة ولكنّك كنت بعيداً جدّاً عن ذلك المكان..
- ذلك لأنّني من فرط حزني على كتابي صرت أمشي بلا وعيٍ أو تفكير.. ذلك لأنّ خسارتي ذلك الكتاب لا ولن تعادل أيّ خسارةٍ أخرى طيلة حياتي!

- فهمت.. سأنظر في الموضوع حالاً وأخبرك..

ونهض القاضي وهو يقول:
- قد تفيد السّرعة الآن..

وانطلق القاضي من فوره بينما امتلأ مالتن ببعض الأمل وقال في نفسه:
- غريب.. إنّه أكثر تواضعاً بكثيرٍ ممّا يكون القاضي عادةً!.. ولكن أخيراً ابتسمت لي أيّتها الدّنيا!.. حتّى لو لم يجد الكتاب فقد يستطيع هذا الرّجل أن يحكم في صالحي ويخلّصني من وصية عمّي..

ولم يستطع مالتن أن يعبّر عن انفعاله كما ينبغي وسط كلّ تلك الضّمادات والجبائر ولكنّ بسمته كانت تتّسع على وجهه وهو يفكّر:
- لن يخطر في بال ذلك القاضي أنّ هذا الكتاب له كلّ تلك القيمة العظيمة وأنّه بعمله هذا يسهم في ولادة مليونيرٍ جديد.. حسناً.. بمجرد أن تؤول إليّ تلك الأملاك وأغدو مليونيراً قد أنعم على هذا القاضي بمكافأةٍ مجزية.. أو...

وفكّر مالتن قليلاً ثمّ أردف:
- لا!.. لم أكافئه؟!.. إنّه يفعل هذا تعويضاً لي عن كلّ هذا الضّرر الذي تسبّب لي به.. آه.. كم من الأيّام سأقضي متعذّباً بين هذه الجبائر مؤمّلاً عودتي إلى طبيعتي؟!.. ولكن لا بأس إن كان هذا

ثمن الثّروة.. أجل.. كثيرون يدفعون أعمارهم بطولها ليغدو أثرياء ورغم ذلك الثّمن الثّمين يفشلون!.. ومن ناحيةٍ أخرى سيقوم الخدم على راحتي ولن يؤثّر ذلك عليّ كثيراً!

وبذا قضى مالتن اليوم بطوله متنقّلاً من حلمٍ إلى حلمٍ وهو يحلم بعودة القاضي إليه وهو يزفّ إليه البشرى على طبقٍ من ذهبٍ مرصّعٍ بالألماس!

وجاء اللّيل وجلب معه القاضي أخيراً فأخذ مالتن ينظر إليه متلهفّاً بينما تقدّم القاضي بتؤدته وجلس بهدوءٍ بعد أن ألقى التّحيّة وتبادل مع مالتن نظراتٌ قبل أن يقول:
- أرجو أن تكون قد تحسّنت الآن..
- لا أدري؛ أنا لا أشعر بجسدي عندما أفكّر بكتابي يا سيّدي.. أرجوك أخبرني فوراً بلا مقدّمات.. هل استطعت إعادته أم أنّهم أحرقوه وفات الأوان؟
- لا..
- لا؟!
- نعم..كما سمعت؛ لا.. لقد أخبرني زعيمهم بعد هيت وهات أنّه قد باعه لأحد الطلّاب...
- باعه؟!.. باعه؟!.. كيف يبيعه وهو ممزّقٌ ومتّسخٌ؟!
- ممزّقٌ ومتّسخ؟!.. الكتاب الذي تهيم به لهذه الدّرجة الفظيعة ممزّقٌ ومتّسخٌ؟!

وضرب القاضي وجهه الذي احمرّ من هول المفاجأة بينما انبرى

مالتن مدافعاً:
- حسناً.. إنّه كذلك.. ولكنّ قيمته تساوي أضعاف هذه المشفى الضّخمة بما فيها يا سيّدي!.. أتصدّق ذلك؟
- آآآ.. نعم.. نعم!

وكتم القاضي بسمته وهو يحاول أن يجاري بساطة محدّثه وأضفى على وجهه هيبته المعتادة بينما قال مالتن:
- وهل عرفت من هو الطالب الذي اشتراه؟
- لا.. هذا مستحيل.. فهو مجرد طفلٍ بثيابٍ مدرسيّة.. لا شيء يميّزه وخاصّةً أنّ زعيم تلك العصابة ليس بالمتعاون..
- ولكن.. ماذا عن كتابي؟.. ماذا عنّي؟
- إذا كنت مصرّاً بإمكانك أن تعلن عنه في الجرائد مثلاً.. ربّما يقرأ إعلانك أهل ذلك الطّفل ويبيعونك إيّاه!
- ماذا؟!

وخمد مالتن قليلاً ثمّ أردف غاضباً:
- كتابٌ ممزّق.. ماذا يريد أن يفعل به؟!.. يحشو به وسادته أو يصنع به صواريخ ورقيّة.. آآه!.. إنّ جسدي كلّه يؤلمني.. آآه!.. ما هذا الألم الفظيع.. لم أذق مثله في حياتي.. آآه!

وأخذ مالتن بالتأوّه والصّراخ فهرع الممرّض إليه قائلاً للقاضي:
- ماذا فعلت له؟.. مضى عليه نهارٌ كامل لم أسمعه يتأوّه ولا لمرّةٍ واحدة.. ماذا حدث الآن فجأة؟
- لم أفعل شيئاً.. ولكن.. بإمكانك أن تقول أنّ معنويّاته

انخفضت.. بعض الشّيء..

وانسحب القاضي شيئاً فشيئاً بعد دخول الطّبيب ووسط صراخ المريض وقد داهمه الشعور بالذّنب حياله ولكنّه في نفس الوقت كان يضرب أخماساً في أسداس..
- ترى لم جمعني اللّه لي بهذا الشّاب الغريب الأطوار وألزمني به؟.. وهل هو مجنونٌ كما يبدو أم عاقل؟!.. وماذا قد يعني له ذلك الكتاب التّافه؟!.. وهل ينبغي أن أبحث عنه بجدٍّ أم أتجاهل ذلك؟

وزفر القاضي بين عشرات الأسئلة التي أخذت تطرق رأسه جيئةً وذهاباً وهو يعود إلى منزله وأخيراً وجد حلّاً كما بدا له..

وفي اليوم التّالي عاد إلى مالتن الذي أخذ يرمقه بنظراته شزراً وبغضاً فاصطدم قليلاً ثمّ قال:
- ما هذه النّظرات يا سيد مالتن؟!.. أنا لا زلت في حلّ مشكلتك.. ومن ناحيةٍ أخرى فما إن تتحسّن وتستطيع الجلوس في الكرسيّ المتحرّك إن شاء اللّه حتّى آخذك إلى مكتبتي فهي كبيرةٌ و...
- مكتبتك؟!.. وماذا أفعل في مكتبتك؟!

فتمالك القاضي أعصابه أمام حدّة محدّثه وأجاب بهدوء:
- سوف تقرأ فيها.. لن تستحمّ طبعاً!
- أقرأ؟!

- أجل.. تقرأ.. وماذا يفعل بالكتب غير القراءة؟!
- وماذا لو كنت لا أحسن القراءة؟

وعلى الفور تداعى القاضي إلى أحد الكراسي وهو يقول فاقداً أعصابه:
- وما قيمة ذاك الكتاب بالنّسبة إليك إن لم تكن تستطيع أن تقرأه؟!!
- بلى، إنّه كتابٌ قيّمٌ جدّاً.. ولذلك كنت أريد أن أتعلّم القراءة لأقرأه وأحفظه وأمتحن به..

فسحب القاضي نفساً عميقاً ليستعيد هدوءه وهو يهمس في نفسه:
- لم أمرّ في حياتي بمثل هذا الامتحان في ضبط الأعصاب وكبح الفضول.. ولكن لا.. لن تفلت منّي أعصابي!

واستعاد صوته الرّزين وهيبته المعتادة وقال:
- على أيّة حال.. ما رأيك إذاً أن أحضر لك أستاذاً ليعلّمك القراءة والكتابة حتّى لا تضيّع وقتك وأنت في انتظار عودة الكتاب؟
وأشرق وجه مالتن:
- فكرةٌ جيّدة!.. ولكن أنت من سيدفع أجره..
- بالتّأكيد، لقد وعدّتك أن أعوّضك عن أضرارك.. إذاً اتّفقنا..
- ولا تنسَ أن تضع الإعلان في الجريدة..
- صحيح.. ولكن عليك أن تخبرني عن الكتاب حتّى أضع أوصافه..

- نعم.. لقد كان غلافه أحمراً فاخراً وعليه زخرفةٌ ذهبيّةٌ على ما أذكر..
- وعنوانه؟
- "تخيّل نفسك ثريّاً"..
- لم أسمع به قبلاً..
- طبعاً.. فهو من تأليف عمّي..
- صحيح.. أنت لم تذكر شيئاً عن أهلك.. ألا يمكن أن يكونوا قلقين عليك؟
- لا تتعب نفسك.. ليس لي أهلٌ ولا بيت.. وحتّى عمّي هذا قد مات منذ أيّام..
- فهمت.. تقبّل تعزيتي إذاً!

وامتعض مالتن من كلمة التّعزية هذه بينما نهض القاضي مودّعاً وعلى وجهه علامات الرّضا وقد توصّل إلى حلٍّ لفضوله..
- لهذا هو عزيزٌ عليه.. لا بدّ أنّه ذكرى من آخر أفراد عائلته؛ عمّه الذي يحبّه!.. نعم.. أظنّ هذا..

وبعد مرور شهرٍ كان القاضي مدهوشاً عندما دخل المشفى فوجد مالتن على أحد الكراسي المتحرّكة في حديقتها فألقى عليه التّحيّة مبتسماً وهنّئه على تحسّن صحّته فأجابه مالتن ببرودته المعتادة:
- أعندك خبرٌ عن كتابي؟
- كلّا.. رغم كلّ تلك الإعلانات التي نشرتها.. المهمّ أنّك لا تضيّع الوقت وتتعلّم القراءة استعداداً!

فرمقه مالتن بنظراتٍ باردةٍ ثمّ نظر إلى اللّافتة المجاورة:
- قس..م.. الإس..عاف.. قسم الإسعاف!
فبهت القاضي وقال مدهوشاً:
- الحقّ أنّني لم أكن أتوقّع أن تتعلّم القراءة بهذه السّرعة!
- طبعاً.. يجب أن أكون سريعاً؛ فأنا عندي هدف!.. عندي فرصةٌ لم ولن تسنح للمليارات من البشر!

فأجاب القاضي متلكّئاً:
- نعم.. على أيّة حالٍ هذا هو الإنسان؛ عندما يركّز على هدفٍ فهو يحطّم الدّنيا لاهثاً وراءه!
- هذا إن كان هدفه ثميناً مثل هدفي!

فأجابه القاضي في نفسه:
- وأظنّ أنّني أنا من ستحطمه كي تصل إلى هدفك!
فأردف مالتن:
- على أيّة حال.. خذني إلى المكان الذي وجدتّني فيه عند الحادث..

ففوجئ القاضي بينما استطرد مالتن:
- هناك ما أفقده وقد يكون سقط هناك..
- ولكن مضى على ذلك أكثر من شهر.. أعني من غير المعقول أن تجد ذلك الشّيء في مكانه!
- لتوّنا كنّا نتكلّم؛ أنا سأتحدّى المعقول واللّا معقول وراء هدفي!

- ح.. حسناً.. أرجو أن يتّسع كرسيّك في سيّارتي..

وبالفعل وصل الاثنان إلى مكان الحادث وأخذ مالتن يذرع الأرض بنظراته ويفتّشها بينما وقف القاضي ينتظره وبعد فترةٍ ملّ الأخير فقال:
- سأكون في فيلّتي هنا؛ عندما تنهي نادي علي..
وما مشى القاضي خطوتين قبل أن يصرخ مالتن:
- ها هي ذا.. هناك؛ عالقةٌ بالصّخرة!

فعاد القاضي أدراجه وسحب تلك الورقة المصفرّة المتّسخة من تحت الصّخرة وقال وهو ينفض التّراب عنها:
- هذه؟
- نعم.. هذه هي الورقة التي تمزّقت من كتابي.. هاتها لأقرأها!
- لن تستطيع قراءتها فهي مطوّاةٌ ومتّسخة.. سأقرأها لك أنا..

" وبعد ما وصفت لك الثّراء بكافّة تفاصيله ونعيمه العظيم وقد تخيّلته معي فإنّي أنشدك أن تتصوّر هذا كلّه حولك ليومٍ كامل؛ ٢٤ ساعة..

لن أنتظرك حتى تقول لي: 'هذه تفاهة' أو 'ما الفائدة من هذا؟' بل سأجيبك فوراً أنّك لن تستطيع.. ولم؟!

إنّك تريد أن تكون ثريّاً كي تتخلّص من كثيرٍ من الحدود وتفعل ما يحلو لك وهذا عينه ما تستطيع أن تفعله في الخيال أي في

عالمك الخاص وبطبيعة الحال لن تجد شيئاً ترنو إليه وترغب في تحقيقه في خيالك إلّا قضيته في غضون ساعتين أو ثلاثة ففي الخيال لا حدود.. وتستطيع أن تفعل المعقول واللّا معقول وبذا تنتهي حياتك في ثوانٍ بدّل من السّنين وسرعان ما تجد نفسك ملّان من الخيال وعائداً إلى الواقع تبحث عن جديد......"

فقال القاضي بعد أن انتهى من القراءة:

- هنا تمزّقت الورقة.. ولكنّها حكمةٌ قيّمة، يبدو أنّ عمّك كان حكيماً أو فيلسوفاً!

- ماذا؟!.. حكيم؟!.. عمّي حكيم؟!.. ربّما كان سيكون كذلك عندما ألّف هذا الكتاب قبل أن يصبح ثريّاً، أمّا بعدما أصبح ثريّاً....

- وهل عمّك -أخو أبيك- ثريّ؟

- نعم.. وهو الذي اضطرّني إلى حفظ هذا الكتاب البغيض..

فنظر القاضي إلى مالتن نظراتٍ غريبةٍ فأردف مالتن موضّحاً:

- قبل أكثر من ثلاثين سنةً مضت أنشأ أبي وعمّي شركة ملبوسات ولكنّها لم تلقَ رواجاً وكادت تفلس فألقى عمّي اللّوم على أبي وتشاجرا شجاراً عظيماً أفضى إلى خروج أبي من الشّراكة مستغنياً..

ولكن لسوء الحظ كان قراره في اللّحظة الحاسمة إذ ما مضى إلّا فترةٌ وجيزةٌ قبل أن تتبرعم تلك الشّركة وتزهر وأخيراً تثمر ويصعد عمّي على درج الطّبقات ويغدو من الأثرياء في حين تدهورت حالنا ونزلنا حتّى أصبحنا من الفقراء وبوفاة أبي من

شدّة غيظه أصبحنا من المعدمين..

كان عمري حينها خمس سنواتٍ حين طردنا صاحب البيت أنا وأمّي وعشنا حياة التّشرّد والعذاب ورغم علم عمّي بحالنا إلّا أنّه حافظ على أحقاده مع أبي ولم يساعدنا بربنغيتٍ واحد طيلة حياته..

والآن بعد مماته فقد فرض عليّ في وصيّته حفظ هذا الكتاب وتقديم امتحانٍ به حتّى أستطيع الحصول على إرثي الشّرعيّ وإلّا آلت أملاكه كلّها إلى الجمعيّات الخيريّة..

وعلى صدى هذه الكلمات احمرّ وجه القاضي ودنا إلى الغضب وهو يتمتم:
- إذاً عمّك هو تشورش مالتن.. هو نفسه الثريّ تشورش مالتن..

فنظر مالتن إلى القاضي مستغرباً بينما أشاح الأخير بوجهه ثمّ أعاده قائلاً باحتقانٍ:
- في البداية عندما صدمتك بسيّارتي تساءلت عن سبب القدر الذي جمعني بك وعندما عرفت اسمك راودني شعورٌ بأنّك تمتّ له بصلّةٍ ولكنّني.. أسكتّ ذلك الشّعور في داخلي..
- وهل تعرف عمّي سابقاً؟
- أعرفه؟!.. أجل، أعرفه معرفة ندٍّ لندّه.. أعرفه معرفة غريمٍ لغريمه..
- لا أستغرب هذا على عمّي ولكن منذ متّى تعرفه؟

- قبل قرابة عشرين سنةٍ.. أوّل ما سمعنا باسمه كان يوم تقدّموا إلى والدي القاضي بقضيّةٍ ضدّ عمّك وذلك لأنّ والدي كان قاضياً تقيّاً عادلاً متذرعين بعدل والدي على جور عمّك..

كانت ملابسات القضيّة شائكةٌ ومن الواضح أنّ هناك تلاعباً من قبل محاميه بتلر وعندما أحسّ المحامي أن أبي قد كشف ذلك وكاد أن يحكم لصالح خصم عمّك، أرسل إلى والدي ليرشيه بمبلغٍ كبير ولكنّ أبي الذي كان يخاف اللّه رفض وأبى بشكلٍ قطعيٍّ وما أغلق تلك القضيّة إلّا بالعدل الأكمل..

وهذا طبعاً ألحق الخسارة الفادحة بعمّك وما والاه.. وما هي إلّا أيّامٌ بسيطةٌ قبل أن يتعرّض أبي لحادث سيّاراتٍ ساحق؛ انقلبت السّيّارة واشتعلت..

وسكت القاضي بحرقةٍ ثمّ أردف:
- كنت حينها في الخامسة عشر من عمري حين وجدت نفسي يتيماً مع إخوتي.. لم يشكّ أحدٌ أنّ الحادث كان مدبّراً.. وبذلت الشّرطة جهداً في التّحقيق لولا أنّ جهوداً أخرى بذلت لإغلاق التّحقيق على أنّ ذلك كان مجرد حادث ولم تجد القضيّة بدّاً من أن تُنسى إذ لم يكن هناك رجلٌ فذٌّ على مرّ السّنين يقوم بها..

ونظر القاضي بحدّةٍ إلى مالتن الذي جمدت نظراته وأردف:
- والآن فات الأوان وفرّ عمّك منّي إلى الأبد.. ولكن أين يفرّ من اللّه؟؟.. أين؟؟

وفي حين لم يجد مالتن جواباً استطرد القاضي بغضبٍ:
- والآن دار الزّمان وصدمتك أنا بالسّيّارة.. أتفهم ما أقول؟.. أنت من سيحلّ محلّ عمّك.. أنت!!
- أ.. أنا؟!!.. وما علاقتي أنا؟!

فابتسم القاضي مستعيداً هيبته وقال بمكرٍ:
- باختصار؛ لا تبحث عن الكتاب ولا تتعب نفسك!.. فأنا -القاضي- أكبر وأعظم عقبةٍ في وجهك!

فتتأتأت الكلمات في فم مالتن واصفرّ وجهه وقد تملّكه اليأس بينما أجابه القاضي متشفيّاً:
- بل أكثر من ذلك؛ ستكون محظوظاً إن أبقيت عليك حيّاً أو حرّاً!
- ولكن.. ما ذنبي أنا؟!.. أنا أيضاً مثلك ضحيّةٌ لجشع عمّي!

ولكنّ الغضب والانتقام كانا قد جعلا القاضي أصمّاً عن سماع صوتٍ إلّا صوت نفسه فابتسم بكبرياءٍ وركب سيّارته وهو يقول ساخراً:
- إن استطعت أن تجعل الأرض تبتلعك فافعل!

وانطلقت السّيارة تخفي بين هديرها صرخات ذلك العاجز المقعد الذي أخذ ينادي بصوتٍ بحّه البكاء بلا مجيبٍ.. انطلقت كالسّهم في الأوستراد وكأنّها تحاول بالقوّة النّابذة أن تطرد

الهواجس والأفكار عن ذهن سائقها..

وسرعان ما واجهته سيّارة نقلٍ كبيرةٍ فاستيقظ من شروده على صوت بوقها وأدار المقود بكلّ قوّته وسيطر صوت الإطارات الرّهيب على الموقف الفظيع وبدأت السيّارة السّريعة بالانقلاب المأساوي فوجد القاضي نفسه مدفوعاً للقفز منها.. وسقط أخيراً على العشب اليابس متدحرجاً..

كان هذا هو آخر ما يذكره قبل أن يفتح عينيه ثانيةً ويجد نفسه في فيلّته، فنهض متثاقلاً وهو يشعر بنوبة ألمٍ تسري في عظامه وبحث عن البوّاب حتّى وجده في الحديقة..

وما إن التقت أعينهما حتّى ابتسم البوّاب العجوز واقترب قائلاً:
- الحمد لله على سلامتك يا سيّدي!
- نعم، الحمد لله.. ولكن كم مرّ على الحادث؟
- ساعاتٌ يا سيّدي..
- فقط؟!.. ألم تعلم الشّرطة به؟
- لا أظن.. كنت ذاهباً إلى المدينة حينما رأيت سيّارةً على جانب الطّريق.. وساورني شكٌّ أنها سيّارتك التي أعرفها جيّداً ولكنّني استبعدتّ هذا الظنّ حتّى وقفت بجوارها وتأكدّت أنّها هي وقد تحطّم جزءٌ من هيكلها وحولها آثار إطّاراتٍ حادّةٍ فشدهني ذلك لولا أنّه أيقظني صوت أنفاسٍ من شرودي فوجدتّك هناك على العشب فسارعت لمساعدتك وأحضرتك إلى هنا..
- جزاك الله خيراً عنّي يا صديقي.. يبدو أنّ السّائق الآخر قد لاذ

بالفرار تاركاً إيّاي على حالي.. الحمد لله على السلّامة.. ولكنّي أظنّ أنّ عظامي كلّها قد ارتضّت..
- أمر هذا الحادث غريبٌ يا سيّدي.. فأنا أعلم أنّك تقود بهدوءٍ عادةً!
- نعم.. ولكن....

وسكت القاضي يتذكّر شيئاً وقال:
- أظنّ أنّ الله يقول لي أنّي قد أخطأت..

وأشاح بوجهه ثمّ أسرع خارجاً من الفيلّا ولحقه البوّاب وبعد أمتارٍ وقف القاضي قائلاً:
- ألم تر رجلاً على كرسيٍّ متحرّك؟.. كان هنا منذ ساعات..
- لا.. لم أرَ أحداً هنا اليوم فضلاً عن رؤية شخصٍ بكرسيٍّ متحرّك!

فأخذ القاضي يتفحّص الأرض باحثاً عن آثار عجلات الكرسيّ دونما جدوى فنهض وقال:
- ابحث عنه.. ابحث عن هذا الرّجل في الجوار.. فلن تبتلعه الأرض على أيّة حال!

ولكنّ البوّاب لم يجد شيئاً في ذاك اليوم ولا في أيّ يومٍ ولم يوجد لمالتن أثرٌ في المشافي ولا في الطرقات ولم يقف له أحدٌ على أثرٍ لشهورٍ وشهور...

وكاد القاضي يُجنّ في البداية:
- أين اختفى؟!.. أين يختفي رجلٌ عاجزٌ مقعد بحاجةٍ إلى العناية؟!!.. أبتلعته الأرض؟!.. هذا ما قلته له فعلاً ولكن لم أتخيّل أن يعتبرها نصيحةً إلى هذه الدّرجة!

وتنهّد وقال:
- هذا يكفي.. لم يعد منه أثرٌ إلّا تلك الورقة..

وأخرجها يتفحّصها..
- حسناً.. إنّها بخطّ يده فعلاً.. ولكنّني لا أظنّ أنّ شخصاً ثريّاً مثله قد يترك كتابه في الظلّ..

وانبرى يبحث عنه في المكاتب ولم يبذل جهداً جمّاً قبل أن يجده في أحد المكاتب القديمة..

- "تخيّل نفسك ثريّاً".. لا، لم أسمع به.. بلى كأنّي سمعت به.. على أيّة حال، لحسن حظّك أنّي لا زلت أحتفظ بواحد.. نفدت نسخه من ثلاثين سنة..

بذا أجاب صاحب المكتبة العجوز وهو يبحث عن الكتاب في أحد الصّناديق وأخذ ينفض عنه الغبار بينما تناوله القاضي وفتح الصّفحة المطابقة لقصاصة الورق المصفرّة التي معه..
- إنّه هو!.. أشكرك، كم تريد ثمناً له؟
- إنّه قديم.. حسناً، ثلاثين رينغيت تكفي..

- فقط؟!. حسناً.. تفضّل!

وخرج القاضي من المكتبة مبتسماً وهو يهمس في نفسه:
- بدأت أشعر كما كان يشعر مالتن؛ هذا الكتاب البسيط هو مفتاح تلك الثّروة العظيمة ومع ذلك لا يقدّره أحد!!.. كم هو عجيبٌ أن تباع ثروةٌ بثلاثين رينغيت!
وتنهّد وقال:
- ولكن ما الفائدة وإلى أين سأصل؟!.. وجدت الكتاب وفقدت الرّجل!

وهكذا انتقل الكتاب أو المفتاح -كما كان حاله- من صندوق المكتبة المليء بالغبار إلى رفّ القاضي وجلس عليه سنين وأيّام يأكله الغبار دون أن تفكّر يدٌ أن تمسّه.. لم يحظَ حتّى بأن يقرأه صاحبه -القاضي- الذي كان يقشعر بدنه من سماع اسم كاتبه!

ولم يدرِ ذلك الكتاب أنّ هناك إنساناً في مكانٍ ما في هذا العالم يتحرّق بل ويحرق ليله ونهاره وهو يحلم به ويراه في النّوم واليقظة بين يديه يلثمه ويعانقه ويدعو بموت صاحبه!!

ومرّت أربع سنواتٍ قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي دخل القاضي فيلّته مع عائلته كعادتهم عندما وجدوا فيها وجه امرأةٍ يشبه وجه البوّاب الذي اعتادوا عليه منذ سنين وسرعان ما علّلت المرأة للقاضي بحزنٍ:
- اعذرنا يا سيّدي.. ولكنّ والدي سقط البارحة على الأرض بقوّةٍ

وأصيب في عموده الفقري.. ونظراً إلى حاجتنا إلى المال فقد جئت عوضاً عنه..
- خيراً.. أدعو له بالشّفاء.. على أيّة حالٍ لا تقلقي؛ عودي إلى بيتك وسأدفع لكم الأجرة كما لو كان أبوك لا زال في عمله..
- هذا كرمٌ منك يا سيّدي!!.. لا أعرف كيف أشكر شهامتك!!

وغاصت ابتسامتها وهي تقول:
- مع أنّه لو كان زوجي نشيطاً يعتمد عليه كباقي الرّجال لما احتجت إلى إزعاجك هكذا!
- وهل أنت متزوّجة؟!
- هذا بالاسم فقط.. أمّا الحقيقة... حسناً، كلّ ما أحصل عليه هو السّماع عن سمفونيّة الكتاب المجنونة تلك!
- الكتاب؟.. أيّ كتاب؟

وتلكّأت المرأة ثمّ قالت:
- لا.. لا شيء.. إنّها قصّةٌ يحبّها فقط..

وتهرّبت المرأة وتركها القاضي تهرب بينما أسرع هو إلى الرّف وانتزع الكتاب من غباره وأسرع إلى سيّارته وهو يهمس بغيظٍ:
- سنين وأنا أبحث عنه وأنتظره وهو على بعد فراسخ منّي!

وأسرعت السّيّارة إلى القرية المجاورة حتّى وقفت بجوار بيتٍ قديمٍ.. وأخذ القاضي نفساً عميقاً قبل أن يطرق الباب ومرّت لحظاتٌ قبل أن يفتح الباب ويظهر وجهٌ حفرت التّعاسة

خنادقها على وجهه وقد كان يحمل طفلاً يشبهه على يده ولكنّ الفرق أنّ الطّفل على الأقل لم يكنّ تلك التّعاسة التي يكنّها أبوه!

وما إن رأى مالتن القاضي حتّى التفت إلى الدّاخل ببرودٍ وقال:
- ها هو الطّبيب يا عمّي..

وأدخله دون أن يتعب نفسه بالنّظر إلى وجهه وما إن أغلق الباب حتّى قال القاضي لمالتن:
- يسعدني أنّك لم تستطع أن تقنع الأرض بابتلاعك!

فاتّسعت حدقتا مالتن ورفع باصرتيه بريبةٍ وما إن تلاقت عيناه بعيني القاضي حتّى وقع ابنه من يده واصفرّ وجهه واحمرّ ولم يجد إلّا عادته في الهجوم!

فهجم على القاضي بينما دفعه الأخير بقوّةٍ ووضع الكتاب أمام وجهه يريه إيّاه ولم يفهم مالتن ذلك بل اندلعت معركةٌ بينهما؛ لكمةٌ من هنا ودفعةٌ من هناك حتّى استطاع القاضي أخيراً أن يثبّت مالتن على الأرض ووضع الكتاب أمام عينيه ومرّت لحظاتٌ قبل أن يقرأ مالتن العنوان وتهدأ جوارحه فنهض القاضي ونهض مالتن بينما عيناه لم تنهضا عن الكتاب!

لقد أخذت تلك الكلمات كلّ جوارحه ففتح الكتاب وبدأ بقراءته فوراً وهو يمشي إلى الباب ومن شدّة انشغاله تعثّر بابنه الذي كان يزحف على الأرض بعدما سقط من يده وصرخ الولد بشدّةٍ

ولكنّ الأب كان يسبح في عالمه خارجاً من المنزل فقال له القاضي وهو يحمل الطّفل المسكين:
- لقد قرأت في وصية عمّك أنّ آخر مهلةٍ للامتحان بعد خمس سنوات؛ أي باقي أربعة أشهر فقط!

فانهمك مالتن بالقراءة أكثر بينما أخذ القاضي يهدهد الطّفل المسكين وأغلق الباب ضاحكاً:
- ربّما عندما ينهي حفظ الكتاب ويستيقظ يجد نفسه في تايلاند!
والتفت إلى البوّاب العجوز القابع في سريره وقال له مغتاظاً متهكّماً:
- إذاً مسحت القرية كلّها ولم تجد له أثراً لا في الأحياء ولا في الأموات.. أليس كذلك؟

وتتأتأت الكلمات في فم البوّاب وأشاح وجهه خجلاً ثمّ قال بصوتٍ أقرب إلى الهمس:
- اعذرني يا سيّدي.. ولكنّك لو رأيتَه أوّل ما رأيتُه -عندما كان على الكرسيّ وهو يبكي وينتحب ويندب حظّه وهو يروي لي ما قلته أنت له وعيونه تقطر أسى العالم أجمع- لما لمتني أبداً على ما فعلت يا سيّدي!

- ولكن ألم يبدو لك أنّها كانت نزوة غضبٍ وأنّه ليس من عادتي أن أتصرّف بهذه الطّريقة؟!
- وماذا لو لم يكن ذلك وكنت تبحث عنه لتنتقم منه وتقيم عليه

حكمك؟!.. لم يكن عندي طريقةٌ لأجزم بذلك يا سيّدي، وكنت أعتقد أنّني أنقذه!

فتنهّد القاضي وقال:
- هذه كلّة نتيجة جهلكما.. أنا مجرد قاضٍ ولست أميراً؛ فبأيّ قانونٍ قد أفعل ذلك أصلاً؟!

وهدّأ القاضي نفسه قائلاً:
- في كلّ الأحوال لا فائدة من إلقاء اللّوم على أحد؛ إنّه القدر، فالله أعلم بسبب تأجيله ذلك هذه السّنوات الأربع.. ربّما كانت الصّدمة المفاجأة ستصيبه بجنون العظمة ولذا رأى الله أن يجعلها على سنوات..
- يعني.. هل أفهم من كلامك أنّ لذلك الكتاب أهميّةٌ حقّاً يا سيّدي؟
- طبعاً!
- وما أهميّته؟

فضحك القاضي وقال:
- ستعلم يا صديقي، ستعلم.. وسترى كيف يكافئ الله الإحسان بأضعاف أضعافه!

وبعد مرور الأشهر الأربع كان مالتن مزروعاً عند باب المحامي بتلر ينتظره حتّى يبدأ دوامه.. ويا لفجع المحامي حين رأى وجه مالتن أمامه ثانيةً ولكنّه تمالك نفسه وقام بواجبه....

كانت السّاعة الثّالثة ليلاً عندما نهض القاضي من فراشه مذعوراً على صوت طرقٍ عنيفٍ على باب منزله..
ولكنّه لم يدهش كثيراً عندما رأى وجه مالتن التّعيس البائس على بابه وأدرك على الفور أن مالتن في حالٍ لا يدرك معها أيّ شيءٍ عن تأخّر الوقت أو إلقاء التّحيّة إذ تعلّق بثيابه فوراً وقال له بصوتٍ باكٍ مبحوحٍ:

- سيّدي القاضي.. أرأيت كم سنةً مرّ عليّ وأنا أمرمر حياتي وأسوّد أيّامي بقصّة هذا الكتاب؟.. أرأيت؟
- وماذا حدث؟.. هل رسبت في الامتحان؟
- امتحان؟.. أيّ امتحان؟!.. لقد خدعوني.. سخروا منّي!
- كيف؟.. لقد قرأت وثيقة وصيّة عمّك بنفسي!
- أجل.. وخمّن ماذا حوت ورقة الامتحان تلك إن صحّ تسميتها كذلك..
- سؤالاً من خارج الكتاب؟
- بل أسوأ من ذلك بكثيرٍ؛ حوت أصعب سؤالٍ على الإطلاق!

وانتحب مالتن وجثا على ركبتيه وهو يقول:
- تخيّل؛ كان السّؤال هو وثيقة تنازلٍ عن إرثي من عمّي؛ عن مالي وثروتي بحذافيرها!
- ماذا؟!
صرخ القاضي متفاجئً وأردف:
- الملعون!.. يا لها من خطّةٍ دنيئةٍ مثل صاحبها!.. وهل وقّعت

عليها؟
- لا.. لقد قرأتها وقرأتها مصعوقاً غير مصدّقٍ.. وعندما تأكّدت أنّها كذلك، رفضت ذلك قطعيّاً وصرخت على المحامي الذي أجابني مبتسماً أمام الشّهود:
- إذا لم تجب بالجواب المطلوب فهذا يعني أنّك رسبت في الامتحان وبالتّالي ستؤول أملاك السّيّد تشورش مالتن إلى الجمعيّات الخيريّة كمّا نصّت وصيّته!

ولم أدرِ ماذا أفعل فمزّقت الورقة من شدّة غضبي فأعلن المحامي أمام الجميع انتقال أملاكي إلى الجمعيّات الخيريّة وطردني من المكتب كما لو كنت....

وأخذ مالتن ينتحب بأسىً بينما ضرب القاضي الحائط بيده وقال:
- الأوغاد!.. سواء إن نجحت أو رسبت فالنّتيجة واحدة؛ لم يكن هدفه إلّا إعياءك!
- نعم.. لقد استغلّ فيني أنّني كنت أميّاً ولا أعلم شيئاً.. أرجوك يا سيّدي.. أنقذني!
- أنقذك؟!.. لقد حدث المحظور ووقعت في شركهم؛ فمم أنقذك؟
- احكم لصالحي!.. أعد إليّ حقّي!

فصعق القاضي ثمّ تمالك نفسه وأمسك يد مالتن قائلاً وهو يُنهضه:
- على أيّة حالٍ من غير المعقول أن نبقى هنا في الطّريق.. تعال

إلى الدّاخل..

وأدخله إلى غرفة الضّيوف وأشعل الأضواء وأجلسه وغاب لحظاتٍ قبل أن يعود بكأس ماء وقدّمه إليه قائلاً:
- تفضّل.. اشرب بعض الماء حتّى تتحسّن وتتمالك نفسك..
- لا أستطيع.. ما في صدري يمنعني من الشّرب والأكل وحتّى النّوم!.. أنا أشقى إنسان في هذا العالم!.. الأشقى!

وسقطت الكأس من يد مالتن وهو يبكي وتحطّمت أجزاءً مصدرةً دويّاً رهيباً في أواخر ذلك اللّيل الأسود ولكنّ مالتن لم يأبه لها وكأنّ شيئاً لم يحدث ولم يسمع شيئاً بل قال متمسّكاً بثياب القاضي:
- سيّدي، إن لم تساعدني فلن أستطيع أن آكل ولا لقمةً واحدةً.. إن لم تساعدني فسأنتحر.. سأموت!

فتنهّد القاضي بحيرةٍ ثمّ قال بصوتٍ منخفض:
- اسمعني جيّداً، منذ أن جلست على كرسيّ القضاء أوّل مرّةٍ قطعت على نفسي عهداً أمام الله العظيم أن أكون قاضياً شريفاً عادلاً وألّا أقبل رشوةً وأن أقيّم الحقّ أينما كان وكيفما كان!
- وهذا ما يوجب عليك مساعدتي إذاً!

فتبادل الاثنان النّظرات ثمّ أردف مالتن:
- ألستُ أنا المستهدف؟!.. ألستُ أنا المظلوم؟!.. ألستَ ترى أنّ الحقّ معي يا سيّدي؟

فسكت القاضي ثمّ قال:
- القانون يقول أنّ الوصيّة أوّلاً؛ فصاحب المال أحقّ بأن يتصرّف بماله!.. حتّى لو كان بهذا التّلاعب والخساسة..
- ولكن أنا ابن أخيه، أنا وريثه الوحيد!
- وإن يكن!
- ماذا تعني؟.. كلّ الدّنيا تعلم أنّ مال الميّت يؤول لأولي القربى.. وأنت ترى الظّلم الذي عاملوني به.. هذا حقّي!
- هذا في قانون اللّه..
- أرأيت؟!.. إنّه حقّي!
- إذاً أنت تؤمن بقانون اللّه!
- الجميع يؤمنون به..
- هذا يعني أنّك تؤمن باللّه؟

فنظر مالتن إلى القاضي موسّعاً عينيه وقال منفجراً:
- أنا أكلّمك بقضيّةٍ تمسّ كياني وأنت تحاول تبشيري؟!
- تبشيرك؟!.. أنا مسلم ولست مسيحيّاً حتّى أحاول تبشيرك!
- وما الفرق؟
- الفرق أنّه....
- لا تخبرني!.. لا أريد أن أسمع!

وسكت الاثنان قبل أن يقول مالتن أخيراً:
- كيف وأنا منذ بداية حياتي أخرج من تعاسةٍ وأغطس في أخرى؟!.. لم يذقني السّعادة يوماً!

- يوماً؟!
- أجل.. ولا يوم!

فنظر القاضي إلى مالتن مستعجباً ثمّ قال:
- سمعت قصّةً عن أحد السّلاطين؛ قال له حكيمٌ:" أرأيت لو عطشت عطشاً شديداً واشتهيت شربة ماء، كم تدفع ثمناً لها؟" فأجابه: "نصف ملكي" فقال له: " أرأيت لو حبست هذه الشّربة في جسدك فلم تستطع إخراجها، كم تدفع ثمن إخراجها؟" فأجابه: "نصفه الآخر" فقال له الحكيم: " فما هذا الملك الذي يساوي شربة ماء!".. قل لي يا سيّد مالتن كم شربة ماءٍ شربت في حياتك حتّى الآن؟.. وكم ثروةً دفعت ثمناً لهم؟

وابتسم القاضي بينما نهض مالتن وجثا على ركبتيه متمسّكاً بركبتي القاضي وقال له متوسّلاً:
- دعك من هذا الآن فالأمر أشدّ من هذا.. إذا تأخرت فسيوزّعون مالي على الجمعيّات الخيريّة.. أرجوك ساعدني مقابل ما تريد!
- حسناً سأساعدك ولكن مقابل عينيك؟
- !!!
- أو مقابل كليتيك!

فنظر إليه مالتن باستخفافٍ بينما أردف القاضي ضاحكاً:
- يبدو أن ثروتك أرخص من كل ما لديك ومع ذلك فأنت تضحّي بكلّ ما لديك من أجلها!
- أليس هناك أملٌ في إقناعك؟!

- بإختصارٍ بإمكانك أن تبدأ البحث عن مهنةٍ!

فنهض مالتن وهو يرشق القاضي بنظرات الحقد بينما أجابه الأخير:
- لن أكذب عليك؛ قلبي مقبوضٌ وغير منشرحٍ لتجاوز القوانين!
- حقّاً؟!.. وكيف أشرحه لك بالضّبط؟
- هذا لا يعلمه إلّا الله!.. وبالتّالي فهو الوحيد القادر على ذلك وليس لك إلى ذلك إلّا أن تدعوه فإن كنت مظلوماً حقّاً أجابك الله إلى طلبك لأنّه يجيب المظلوم وإن كان ليس من المسلمين!

فظهرت المفاجأة واضحةً في عيني مالتن فنظر إلى الأرض مليّاً ثمّ قال:
- وأين الله؟
- بل قل: "أين نحن؟" فالوجود لله وبالتّالي فالوجود ليس لنا إلّا من الله.. ولكن بإمكانك أن تتجّه إلى هناك!

وأشار القاضي إلى جهة القبلة بينما ألقى مالتن نظرةً إلى تلك الجهة ثمّ جلس متثاقلاً وقال للقاضي:
- على أيّة حالٍ، عندي إليك طلب.. هل لي ببعض الخبز السّاخن؛ فأنا الآن أكاد أفقد وعيي من شدّة الجوع؟

فاستغرب القاضي هذا الجواب الشّاذ ولكنّه نهض مبتسماً وهو يقول:
- بالتّأكيد.. انتظرني دقائق فقط..

وانطلق القاضي إلى المطبخ بطيبة قلبٍ وبدأ فوراً بتسخين الطّعام وهو يفكّر ما هذا الطّلب المفاجئ؟؟

ومرّت الدّقائق سريعةً قبل أن ينطلق القاضي حاملاً الطّعام إلى ضيفه وعندما وضع يده على مقبض الباب ليفتحه تناهى إلى سمعه صوت بكاءٍ من داخل الغرفة فتوقّف مرهفاً سمعه فسمع صوت مالتن وهو يقول:
- يا ربّي!.. تعبت من رجاء على هؤلاء البشر.. تعبت!

فتوقّف القاضي وقد احمرّ وجهه وقد أدرك فوراً سرّ الخبز السّاخن فتنحّى جانباً..

ومضى حينٌ من الزّمان قبل أن يهدأ مالتن ويدخل عليه القاضي وهو يحمل الطّعام وتبادل معه نظرةً قبل أن يناوله الصّحن ولكنّ مالتن امتنع عن أخذه قائلاً:
- أشكرك.. ولكنّ معدتي كالجمر ولا أستطيع أن آكل لقمة!

ولم يدهش القاضي لذلك فوضع الصّحن جانباً بينما كانت عينا مالتن تصبّ عليه الكلمات صبّاً فأجابهما القاضي بظرفٍ أبيضٍ يلوّح به قائلاً:
- لديّ صديقٌ محامٍ أثق به كثيراً ومكتبه مواجهٌ للحديقة العامّة..

وتبادل مع مالتن نظرةً قبل أن يردف بصوتٍ رحيمٍ:

- هذه الرّسالة تشرح له ملابسات قضيّتك وما عليك إلّا أن تعطيه إيّاها وتوكّله ليفتح ملف القضيّة!

وعلى الفور أشرق وجه مالتن وتبدّت السّعادة من بين شفتيه فأجابه القاضي:
- سأكلّم رئيس القضاة إن شاء الله وأحاول أن أغيّر بنداً من وصيّة عمّك فقط وهو أن يكون الامتحان منطقياً بدلاً عن هذه السّخرية التي خلّفها عمّك ولذا لا يعني هذا أنّك تخلّصت من ذاك الكتاب؛ بل عليك أن تجتهد حتّى تنجح بالامتحان وتتجاوزه وإلّا....

فأطرق مالتن ثم قال متنهّداً:
- لا بأس؛ فقد قضيت الأشهر أحفظه حتّى حفظته عن ظهر قلبٍ.. ومن ناحيةٍ أخرى، أعلم أنّك تفعل ذلك لتستميلني إلى دينك ولكن...

وألقى مالتن نظرةً أخيرةً إلى القاضي قبل أن يخرج قائلاً:
- لو كنت أعلم قبل سنواتٍ أنّ مفتاح قضيّتي هو أنت وليس الكتاب لتعرّضت لك لتصدمني بسيّارتك قاصداً!!
- لم تكن تعلم ولكنّ الله كان يعلم!

وأردف القاضي في نفسه:
- ولو كنت أعلم أنا أنّ صدمي إيّاك بسيّارتي سيجعلك تقول 'يا ربّي' يوماً ما لصدمتك قاصداً!!

وبالفعل لم يمرّ طويل وقتٍ قبل أن تفتح تلك الجلسة القضائيّة برئاسة القاضي محمّد لولام وبادّعاء مالتن وتمّت الأمور على أحسن ما يرام بحيث قدّم المحامي بتلر مكرهاً في الجلسة التّالية وثيقة امتحانٍ جديدةٍ بصفته نائباً عن تشورش مالتن..

وخلال ساعةٍ كان مالتن قد خطّ خطوطه الرّاجفة على ورقة حياته وعلى الرّغم من أنّ أسنانه كادت تتكسّر وهي تصطكّ بانتظار النّتيجة ولكنّ أسنانه بفضل الله خرجوا سالمين عندما تمّ إعلان نجاح مالتن في الامتحان بدرجة مئةٍ على مئةٍ!..
وكيف لا؟!!

وفي مساء اليوم التّالي وبينما كان القاضي عائداً إلى منزله كعادته فاجأه صوت سيّارةٍ سريعةٍ متهوّرةٍ خلفه فأسرع إلى الرّصيف والتفت بسرعةٍ فرأى سيّارةً سوداء فاخرةً تزيّنها طاقات الورود الفتّانة ورائحة عبيرها تشمّ من أمتارٍ!

وسرعان ما انفتح سقفها أوتوماتيكيّاً وظهر سائقها بنظّاراته السّوداء وثيابه الفاخرة.. ولم يحتج القاضي كثيراً من الوقت قبل أن تذهب عنه الدّهشة ويتوقّع أنّه مالتن، وأين ذاك المالتن من هذا المالتن؟!!

ونزل الخادم ليفتح باب السّيّارة لسيّده ولكنه دهش عندما وجد سيّده مالتن قد صار خارج السّيّارة أصلاً!.. فقد انطلق مالتن

بخفّته مسرعاً إلى القاضي ورفع نظّارته السّوداء قائلاً له بلهفةٍ:
- مرحباً أيّها القاضي.. ما رأيك بهذه اللوامبارجوني؟

فضحك القاضي وقال:
- تقصد اللامبورغيني.. لا بأس بها!
- وهذه النّظّارة السّوداء.. وأخيراً وضعت نظّارةً سوداء!!
- بصراحةٍ لا أحبّ الأسود..

فتبسّم مالتن وقال:
- صحيح.. أنت الآن تستحقّ منّي مكافأةً كبيرة!
- قلت لك منذ البداية أنّي لا أحبّ الرّشاوي ولن أقبل رينغيتاً واحداً منك ولا لأيّ سبب!

فدهش مالتن ولكنّه أجاب بصوتٍ واثق:
- لكنّها ليست رشوةً فأنت لم تحكم ظلماً بل هي هديّةٌ بمناسبة عظيم شكري لك!
- ومع ذلك أخشى أن يعلم النّاس بقبولي لهذا المال فيسارعوا إلى رشوتي ولذا فقد حكمت على نفسي وحرّمت عليها كلّ رينغيت من هذا المال خوفاً من الزّلل..

- حسناً، لا بأس.. ربّما يكون هذا مقنعاً ولكن -على أيّة حالٍ- لا تقل أنّك لن تقبل دية والدك المرحوم نيابةً عن عمّي الملعون!

وعلى الفور ظهرت آثار الجرح على وجه القاضي وهو يقول:

- ولا هذه؛ فالدّية برضا وليّ القتيل لا برغم أنفه؛ وأنا سأبقى متمسّكاً بحقّي في القصاص حتّى ينصرني الله يوم القيامة.. اللهمّ إلّا إن قرر بقيّة إخوتي أن يأخذوا الدّية فهذا لا يعنيني ولا يحقّ لي أن أمنعهم..

فسكت مالتن مدهوشاً وفكّر قليلاً ثمّ قال بمكرٍ:
- صحيح!.. لم أسألك عن قلبي؛ هل يعجبك لون قلبي؟
- وهل هو أبيض؟
- حسناً.. لا أعلم كثيراً عن ذلك ولكنّني سأدعك أنت تختار لونه!

فابتسم القاضي مشرئبّاً وقال:
- هذه أجل!.. هذه تعجبني!
فضحك الاثنان بينما أنزل مالتن نظّارته على عينيه وقال مفتخراً:
- والآن عن إذنك.. يجب أن أزفّ زوجتي إليّ كما ينبغي!
- ولكنّني أنتظرك.. إلى اللّقاء القريب إن شاء الله!

وركب مالتن اللامبورغيني خاصّته متبختراً وانطلق كالرّيح إلى القرية المجاورة ناسياً وراءه الخادم يجري وراء السّيّارة فقد كان المسكين ينتظر سيّده البسيط ليغلق له باب السّيّارة!

أمّا القاضي السّعيد فقد كان يهمس في نفسه وهو يمسك شعره وثيابه المتطايرة من شدّة الهواء الذي خلّفته السّيّارة:

- كم تمرّ في حياتنا مواقفُ كهذه وكم نخسر مثلها ونحن لا ندري! ؛ يوم أطاعت هذه المرأة والدها وصبرت على زوجٍ معتوهٍ وتحمّلت سخريّة أقرانها لم تدري أنها.. أنّها بعملها هذا اشترت ثروةً هائلةً؛ لم تدري أنّها بعملها قربت قرباناً لدى الله الكريم الكريم!!!

«تمّت بفضل الله العظيم»